الإنسان الكوني. بارناد بورجوا

L'HOMME UNIVERSEL. Bernard BOURGEOIS[1]

ترجمة د. أحمد براهيم

أستاذ الفلسفة بكلية العلوم الاجتماعية، جامعة مستغانم،الجزائر.

لقد حدّد مفهوم مصطلح الإنسان الكوني في عصر النهضة الإيطالية والإسبانية، والدليل على ذلك ما جاء في الكتاب الإيطالي في القرن الخامس عشر الميلادي . " ليون ***باتيستا ألبرت***"؛في شأن هذا الإنسان الأعلى العالمي الذي نُظر إليه بمنظارين:تارة على أنّه منظر ومطبق للفن(من بين جملة المور الأعمال المعمارية)،وتارة أخرى على أنّه كاتب ملتزم بنقد الحياة الاجتماعية والسياسية،غير أنّنا نجد ***ريمون سبوند*** في المرحلة التاريخية نفسها يكتب في إسبانيا عن الرجل اللانهائي.

وسيرتبط مفهوم الإنسان العالمي أو اللانهائي هذا، في جميع الحالات أو كلها وعلى المستوى الواقعي أو الإمبريقي أو حتى في المعنى الدنيوي، بالمعنى الكلمة بالإنسان ، كلية، وبشكل نهائي ومنجز.كما سيتم عرض(طرح)المصطلح في وقت لاحق وبشكل بارع في القرن السادس عشر الميلادي، في إيطاليا مع كاتب البلاط الشهير "***كاستيليوني بالدازيا***"، ثم في القرن السابع عشر في اسبانيا مرة أخرى، وذلك من خلال أعمال ***بالتازار قراسيا الديسكريتو***، أين يعرض في نهاية كتابه الإنسان الرزين النادر أحيانا، حيث يوجد فعلا الإنسان العالمي الذي يعيش بحكمته.

هذه العالمية النهضوية والتي ستُنشر(ستنتشر) كذلك في فرنسا خاصة عند ***مونتاني***، هي عالمية إنسانية للإنسان، والتي لا تكتمل إلا باكتماله، فيه وبه في الوقت ذاته.إنه ذلكم الشرف الذي منح له في هذا العالم.مجددا إيمانه،مستبدلا من جديد احتجاجات الإيمان في الواقع بتبنيه لثقافة جديدة ، وفق شمولية الدين اللاهوتي، بحكم أنّه أصل قدر الإنسان، المسمى إنسان، لكل إنسان، للخلاص الفوق دنيوي، بلغة الإله الكاثوليكي، في التسمية، الموضوع ،كعالمي كان أول ظهور لهذا المصطلح.

هما إذن،عهدان اثنان كانا من أبرز العهود التي حددت معالم الإنسانية كإنسان عالمي.الأولى كانت مع الحقبة القديمة والمجيدة لمقابل المسيحية، في حين كانت الثانية مع انتشار المسيحية وما أعلنته من فتوحات عالمية.

سيعمل عصر النهضة على إيجاد الإنسان الوثني الإغريقي-الروماني، والذي لم يرتبط بعد قدريا بالإنسان – إله، وبالأحرى الإله – الإنسان، والثورة كليا سواء ذاتية أو موضوعية الوجود الإنساني الذي يريد، وذلك تقريبا من القرن 18 حتى 19م، أين يتحقق النموذج الدوغمائي الذي يؤكد أن هذا الوجود كصورة للإله، سنجعلها صورة خلاقة في الإبداع السوسيوسياسي أولا: فرنسيا – سنجعلها بناءة – في التفكير المثالي خاصة الألماني ، العالمية النظرية والتطبيقية للإنسان، كما سيؤسسها أو يبررها منتهية بارتبطها بالقدر الإلهي والتي سيكون لها إما وجهة واقعية، أو وجهة مثالية والتي ترتبط به على الفور من أجل تحديدها لعالميتها القادمة، أين سيبرر أي إنسان في هذا العالم تصرفاته في هذه الإنسانية على نحو من الأشكال.

إن الفرق بين العالمية الإنسانية النهضوية والعالمية الإنسانية الثورية تكمن في الاختلاف الحاصل في العالمية الدنيوية التي تزعم بأن الإنسان عالمي،هذا من الجهة الأولى،أما في الثانية فمطلوب لذلك الاختلاف في الحالة هذه توضيحا جليا الاختلاف في المحتوى، لتفترض مسبقا أن الأنا النهضوية أولا وقبل كل شيء كانت حريصة على تحديث العالم، غيريته وكذا ميراثه، تقدم أولا للعالمية شكلا جديدا من التفكير الشفاف والسليم في ذاته بالمعنى الواسع، هويته بالذات الأكثر اندماجا المبهمة، والمتعلقة بالطبيعة بالكون.

لا شك أنّ العالمية التي سيحملها العالم،هي وحدها التي ستجعل الإنسان هو العالم ذاتُه وحقيقته الأصلية. وعندما يطرح العالم من طرف الأنا الثورية، يطرح فكره العالم المتجانس الذي لديه آنوات أخرى، في الهوية بذاتها ستستند عليه كتمايز ذاتي مع حقيقته المختلفة أو المنفردة، يعني هذا داخل تعد تطابقه مع ذاته، حضور مثالي للعالمية : أي يحاول الكون أن يجيب على الإنسان العلمي أو بالأحرى العالم ومثاليته الأصلية.

في حين إذا كان الاختلاف الحاصل بين الصورتين الكبيرتين للإنسان العالمي متناقضتين، بشكل أو بآخر عالمية والعالمية مثالية كعالمية حقيقية (واقعية)، كل واحدة من هذه التأكيدات تعطي النتيجة نفسها، وذلك فيما يخص المفهوم ذاته المتعلقة بـ" الإنسان العالمي" ريثما تظهر مشكلة جديدة، حيث العالمية الواقعية ستتجاوز العالمية المتموضعة في الأنا الإنسانية، مع تقبلنا لخصوصية هذا الأخير والعكس صحيح، هذه العالمية تفكيرها نسبي ومحدود، ومعها العالم بكيليانيته، سنفكر تفكيرا محدودا مهما كان ذلك النقد الاستشرافي لهذا الامتحان الذي سيتبع التصور بين الكبيرين القريبين (المقتربين)للإنسان (الكوني) العالمي، وإذا قرروا حقيقة مطلقة لا تمنح

المعنى الحقيقي للمفهوم، فمن الواجب البحث عن الحقيقة المناسبة، والتي تعطي أو تقدم مفهوما مرتبطا بعصر النهضة مع إعادة تسميته من جديد في الحقبة الكوبرنيكية لهذه الثقافة، مما يؤكد وجود حقبتين كبيرتين للحياة الروحية وإذا العالمية النهضوية – بثرائها المتنوع والتي لا نستطيع نقدها هنا خوفا من التعميم وحتى لا نحولها إلى صورة كاريكاتورية – سترحب بالإنسان، والذي سيلحق بنوايا مختلفة، انعكاس صورة افله التي تحمل صورة الحضور الحقيقي للإنسان– الدنيوي بكل ما ورثه بامتيازه.

لقد تميز وفق شرط التمايز،بمعية سر الوجود المكتمل في عالم الذات ،وذلك بفضل خطين مرسومين باقتراح من الإله، نموذج الإنسان العالمي، ليون باتيستا ألبرت" وفي روايته الساخرة هو في حد ذاته موميس (momus) أو الأمير (momus deu de principe)، في مقدمة الكتاب هناك اعتراف أن الذات الإلهية إطلاق لعالمية بقوتها في كيليانتيها أو أحاديتها، كذلك اطلاقية الذات: والذي يحدد قبل شيء الإله "يعني ذلك أن تكون بصفة غير قابلة للمقارنة ووحيدة"، وإذا كان هذا لرابط الإلهي مطلق فوري، وكذلك كاسم معلن عنه غير مفهوم بشكل واضح، بين متناقضين اثنين ألا وهما العالمية والتفرد اللذان يكونان بشكل دقيق الإنسانية.

في حين افتراض علاقة مثل هذه متروكة بسرها في عصر النهضة متروكة لفكر المضاربة (المدرسي)، لا يمكن أن يمس جميع التناقضات التي سيلقاها وغير المتحكم فيها، تحديثه في الإنسان العالمي تبقى ضعيفة في مفهومها وفي الحقيقة مدانة لاسيما وأن تعددية الناس تضعف بالضرورة الفرد الذي لا مثيل له، المطلق، الذات الإلهية، في التفرد الإنساني ببساطة والمرتبط بالنادر. والمسلم به، أن كل إنسان كما هو فرد واحد عالمي، أو عالمي متفرد، ولكن بشكل أو بآخر عن طريق تسلسل هرمي للموجودات والتي بلغت ذروتها في الإنسان العالمي بامتياز، والتي هي تقريبا إلهية، والتي تكون منعدمة في الموجود المتفرد، وبشكل آخر على الأقل كما يتقرر الموجودات الأخرى، لأن هذا الأخير يعلم أنه ليس نهائي بعد، في حين إنّ جوهر الإنسان الحقيقي في كثير من الأحيان وليس نادرا عندما ينجح في الدمج الوثيق للعالمين بالفرداني، والذي لا يستوعب الأحد الآخر إلا باستكمال كل واحد بكل احترام، وجود الإنسان العالمي، وبكل وثوق عالمي ومتفرد من هو نفسه ذلك العالمي الناقص مقارنة مع إنسانية عصر النهضة تحت شعار الأرستقراطية الإنسانية على نحو ما قدمها "***بيار ماقناد***" التي أعطت عرضا بارعا فيما يخص الأسئلة الإنسانية،[2] وذلك بالعودة المجردة، والتي تقدم له هو كذلك عن طريق أسئلة تطورت مع تطور أشكال هذا الحد نفسه، الذي وضع من طرفه.

هذا الاستحقاق – والذي كان له بالمضاربة ذاتها في ذاته وذلك برفض كل التخمينات الأخرى، كان يرتبط بعدم إلحاق النقيض الحالي للعالمية بالفردانية. كان ينظر للذات الإلهية على أنها عالمية في ما بقيمتها وليس فقط بذاتها مفقودة في الاختلافات الفنية، ولكن لأجل ذاتها والتي تعكس فردانية الذات، ولكن فردانية ليس فقط ذاتها فارعة ولكن تعكس في ذاتها عناء اختلافات العالمية، الذات الإلهية بالنسبة لذاتها، بهذه الطريقة، هوية الهوية والاختلاف باختصار: الشمولية هي عينها ذاتها. وبالشكل ذاته، إنه يولي فردانية الإنسان كوجود من أجل ذاته وذلك بالتفكير في الذات نفسها كحقيقة دنيوية، أولا ككون وكطبيعة، أكثر من أنها عالم للإنسان بانتهائها كحياة لأحد رجال البلاط، الهوية لذاتها للعالمية لا تخرج عن المختلف ولا عن الخصوص، مجردة هذا أين الفردانية يجب أن تكون مجردة من اجل أن تتوحد، ونحن نعرف كيف ولماذا، مع هذا، العالمية الحقيقة تهتم بالكلي، تنتشر من اجل الرؤية الدينامكية النقية بمعنى الشيء بالنسبة لعصر النهضة – في المعنى المتأصل للوجود– حين ينتهي الخاص سنخصصه كعام وكفريد من نوعه في ذاته، في هذا التفكير من اجل ذاته، ما هو التفرد الإنساني؟ هذا الذي يماثل في روحانيته العالم المتناهي في الكبر والذي لا نجده غلا في العالم المتناهي في الصغر، والذي هو الحيوان الإنساني، كل العالم ينتهي بحقيقة واحدة وواحدة فقط آلا وهي في وعبر الذات الإنسانية والتي تأخذ ذروتها في الإنسانية العالمية، الحكمة الفعلية هي التي فعلا تحوي كل العالم في الوجود الحر بمسؤولياته العالمية "***مونتاني*** " "Montaigne" لديه الكثير من الصفحات الجميلة بهذا الخصوص أو القلق الشمولي للعالم، وكذلك أولا الطبيعي، أين الإنسان يتعلم، ولأنه لم يحترم النبات والحيوان جعلنا نشك في أنه سيحترم أناسا آخرين، حقيقة مثل هذه تطبيقية للعالم ستعامل الإنسان والذي هو ككل كما ينبغي التعامل معها، ستشمله، تنغمه، ستسليه، وبشكل آخر ماذا يجب أن يفعل في العالم والذي يخلف عن المختلف؟ – الخاص أو المتفرد– إنه المتفرد نفسه، بدون مصلحته السلطوية أين العنف المتفرد المقصي لحقيقته، يعني لذاته هو نفسه ككائن.

الإنسان العالمي يحدد الإنسانية ككل وكذلك على نطاق واسع وبشكل مكثف، العلاقة بين الأفراد فيها بينهم وكذلك بين الفرد وذاته، كمفهوم وتطبيق بيولوجي، كلياني، أين الإنسانية ترتبط وثوقيا بهذين الجانبين على نطاق واسع، أين كل تعريف / تصنيف الأفراد

فيما بينهم بفضل الفوارق الموجودة بينهم وخصوصياتهم لا يمكن أن تصنع أفرادا شكلانيين متشابهين فيما بينهم .

الهوامش:

1. قدمت هذه المحاضرة الافتتاحية في المؤتمر الدولي لجمعية المجتمعات الفلسفية للغة الفرنسية بتاريخ 28أوت 2008 بتونس.
2. ب.مقناد، أسئلة للإنسانية، باريس، ديوان المطبوعات الفرنسية، 2000.